نداء إلى المثقفين العرب: المثقف العربي أمام المسؤولية الوطنية

صادق جلال العظم، هادي العلوي، فيصل دراج، سعد الله ونّوس، إلياس خوري

كلما ازدادت أوضاع الوطن العربي تردّياً انطلقت أصوات تحذِّر من الخطر الرابض عند حدود هذا الوطن والمتربص بكل واحد منَّا، خطر الاقتلاع ومحو الهوية. وأخذ هذا التحذير أشكالاً مختلفة، وانطلقت الصرخات لمرَّات متعدِّدة من مختلف مناطق هذا الوطن، نذكر منها نداء مجلة **الكرمل** سنة 1981، ورسالة المثقفين العرب الى الحكام العرب في تموز/ يوليو 1982، وبيانَي اتحاد كتاب المغرب على إثر غزو بيروت ومجازر صبرا وشاتيلا وانتحار الشاعر خليل حاوي في تموز/ يوليو 1982، والأعمال البطولية لكل من سناء المحيدلي وسليمان خاطر... واليوم، وبعد أن أصبح للعدوان ذراع طويلة امتدَّت لتضرب حيثما تشاء بمباركة الرجعية العربية... اليوم وفي ظلِّ التمزق العربي وكل مسلسلات التطبيع والاستسلام الزاحفة على الوطن العربي يأتي هذا النداء الذي نضعه بين أيديكم على أمل أن يكون بداية حقيقية لنقاش جدِّي حول مسؤوليات المثقفين تجاه هذه الأوضاع:

لكأن هذا الانحطاط العربي يأخذ شكل سلسلة هندسية، يطال الرأس والأعضاء، الكل والأجزاء والمركز والأطراف. إنه كالسمكة التي فسد رأسها حتى التلف، وبدا فسادها ينتشر شيئاً فشيئاً ليحتضن الجسم كله. وأخذت بعض المفاهيم، إن لم يكن كلها، شكل الأحجية : الكرامة الوطنية، الاحتكام إلى العقل، قيمة الإنسان، وحدة المجتمع، وظيفة الدولة، دور الشعب، دلالة العدو، تاريخ الأمة، القيم الوطنية، التضامن الاجتماعي، وحدة الأرض واللغة... إن انتصار الإمبريالية لم يكن في فرض الكيان الصهيوني بل في خلق صهيونية عربية انتقلت من السرِّ إلى العلن، ومن النظر إلى الفعل المكشوف صهيونية عربية بلا لعثمة تتوسَّل "إسرائيل" وتقمع الشعب العربي، إن لم تتوسَّل التحالف المضمر أو المعلن مع "إسرائيل" لضرب كل ما هو حيٌّ في المجتمع العربي، حتى أصبح من الصعب الحديث عن الصهيونية بصيغة المفرد.

وإذا كانت "إسرائيل" قوة فاعلة في الثورة المضادَّة على المستوى العالمي، فإن الأنظمة العربية وما يرتبط بها من مؤسسات وقوى إظلامية تلتقي مع "إسرائيل" في سياساتها التي تدعم الثورة المضادَّة وتنتجها باستمرار. وغاية هذه السياسات وهدفها الأخير هو إقرار واستقرار ممالك الظلام، و"إسرائيل" كيان إظلامي بامتياز. ومن يبدأ بالظلام ويكون له الرائد يبدأ بتدمير الإنسان كقوة مبدعة وتحطيم قوى الشعب الحية كلِّها،

*نشر هذا النداء في مجلة **عيون المقالات**، العدد 6-7 (1987): 92-94. وظهر في **السفير الثقافي** بتاريخ 8 تشرين الثاني 1986.

فيتساوى عدد المدارس والسجون، إن لم تصبح المدرسة سجناً، ويتزايد عدد المخبرين عن عدد الأطباء، وتتدهور المرافق العامة وتتطوَّر وسائل القمع والإكراه، ويتقلَّص المجتمع وتنتفخ الدولة... إن سمة الأنظمة المستبدَّة تتكشَّف في زيادة تمركز السلطة وتزايد تهشيم وتهميش المجتمع المدني، فكان دور السلطة المستبدَّة هو تدمير كل ما يعوق حركة السلطة أو لا يشكل امتداداً لها. بل يمكن القول إن دور الأنظمة المستبدَّة، كما يجري في بلدان عربيه معينة، هو تدمير الدولة ومصادرتها لحساب سلطة هي أقرب ما تكون إلى سلطة العصابات المسلحة.

وإذا كان دور العقل هو تنظيم عمل العقل والمجتمع بشكل عقلاني، فإن دور العقل في أنظمه الثورة المضادة هو تحطيم العقل في مستوياته كلِّها: قمع العقل الحاضر، قمع العقل الموروث، استيراد النزعات اللاعقلانية، تدمير العقلانية في الحياة اليومية، استنهاض اللاعقلاني الموروث، إنتاج اللاعقلانية في الحركة والمأكل والمشرب واللباس والنظرية والممارسة. فكانت وظيفة العقل هي تدمير كل ما يعتبر العقل مرجعاً. إن دور المعرفة، في زمن العقل، لا ينفصل عن الإنتاج الاجتماعي الإيجابي، أي أنها أداة في خدمة الإنسان أولاً، تطرح الأسئلة وتحرِّض العقل الطليق على البحث عن الإجابة، فمسار المعرفة هو مسار بحث الإنسان عن الحرية. أما دور المعرفة في أنظمة الاستبداد فهو اكتشاف واختراع واستنباط كل الوسائل والمناهج والأدوات التي تجعل من اللاعقلانية ظاهرة اجتماعية. وفي هذا المشروع، الذي جعله النفط وأزمة القوى الوطنية ممكناً، يتحالف الأكاديمي والجنرال، ويتكامل رجل البوليس والباحث التقني، ويتساند السلطوي المفلس مع المثقف الإداري أو مثقف الاختصاص.

ويكون هدف المسدس والسوط والمجلات الأكاديمية والأوراق الملونة وخبير المعرفة هو تدمير ذلك المجهول-المعلوم: الإنسان العادي، المواطن، الإنسان العربي، الفكر النقدي. ولعل أكبر إنجازات الثورة المضادَّة في هذا المجال هو نقل اللاعقلانية من إطار الكتب والأفكار والنظريات والوعي إلى فضاء الحياة الاجتماعية، حيث تعطي موت المجتمع في النزعات الإقليمية والطائفية البائسة والتعصب الأعمى. لم تكتفِ الثورة المضادَّة في نشر اللاعقلانية في مستوى البنى الفوقية، بل صدَّرت نفطها والذهب والخبراء الكبار إلى كل مكان من أجل خلق قاعدة اجتماعية حقيقية لإنتاج وإعادة إنتاج اللاعقلانية. وهذا ما جعل "الواعظ" رجلاً في الاقتصاد، وبائع الأفكار رجل أعمال، وحامل الشرح والتأويل والتبشير قوة اقتصادية.

وإذا كان المثقف التقني، تاريخياً، ينتج معرفة تسمح للسلطة أن تعرف نقاط ضعفها وقوتها، ويكون سلطوياً في الفعل والطموح، فإن جديد زماننا العربي هو تحوُّل المثقف السلطوي إلى مثال ثقافي اجتماعي، حتى غدا المثقف في شكله المسيطر، لا يرى ذاته خارج حدائق السلطة أو مطابخها، فهو بائع الفكر التابع، وعطَّار المعرفة، الذي يصوغ معرفة تحتاجها السلطة، أو الذي ينتج معرفة سلطوية الصياغة. وبذلك أصبحت هذه الأنظمة العاجزة حيناً، والخائنة حيناً آخر، هي مرجع المعرفة، وهي علم العلوم. إن النسق السلطوي الاستبدادي، وهو مغلق، لا يسمح إلا بنسق "معرفي" مغلق، أي أن استبداد يستعمل المعرفة من أجل هزيمة كل معرفة-حقيقية، فالانغلاق المطلق هو صفة اللاهوت الكامل.

وإذا كانت السلطة المستبدَّة، كما المعرفة المستبدَّة، لا ترى العالم إلا في مرجع وحيد أساسه السلطة، فإن كل ما يخرج عنها له صفة النقيض الذي حسابه النفي والإلغاء. وهذا ما يجعل الحوار والحرِّيات وقبول رأي الآخر مستحيلاً. يوجد المختلف ويتم الاعتراف بالاختلاف حيث توجد الديمقراطية، ويعتبر المختلف هو النقيض المطلوب دفنه واجتثاثه حيث يوجد الاستبداد، وبدون الاختلاف والصراع والحوار لا تتكون المعرفة ولا الإنسان ولا المجتمع، فأحادية الرأي والموقف والقرار تقضي إلى سكون يبشر بالموت.

في هذا المسرح العربي الذي تتابع على خشبته مأساة طويلة أبطالها التجهيل والزجر والخنوع والبطر والبلاغة والسجون والخطيب الأعمى والاستهلاك الهجين، لا يبقى من الإنسان إلا وجوده الشكلي الباحث بذعر عن حلٍّ مشاكل النهار وإنقاذ جلده. ويتراجع في هذا الوجود العنصر الذي يجعل المجتمع مجتمعاً، أي يتراجع معنى المسؤولية، فردية كانت أو جماعية، فالفرد لا يستطيع ان يكون مسؤولاً في مجتمع مسؤولية السلطة فيه هي تدمير الانسان أولاً. إن انحلال معنى المسؤولية في مستوياتها كلِّها، وهو المقدمة الأولى لانحلال المجتمع وتفسيخ ما كان موحَّداً، وتقطيع الشعب والأمة إلى أقاليم ومدن وقرى وشوارع وبيوت حيث تتحلَّل الوحدة الاجتماعية، ويصبح الوطن مكاناً جغرافياً قلق الحدود وغائم الدلالة تتراكم فيه مجموعة من الذرَّات الإنسانية الباحثة عن خلاص فردي. فالتاريخ، يعلِّمنا، إن كنا قادرين على التعلُّم، أن مجتمع القمع وانحلال المسؤولية هو ذاك الذي يكون التفسخ أفقه الوحيد. وهو المجتمع الذي يستبدل الذرَّة التائهة بالفردية الواعية والفعل الخلاق بالفرار واللواذ والانسحاب.

لقد عاش الخطاب العربي، في ألوانه كلِّها، وهو يبشِّر بجمال الزمن الآتي، بقرب انبعاث القوة الهاجعة في طيِّ الزمان، وبالتحقيق المبدع للجوهر العربي المستمر. وفي هذا الخطاب كانت القدس، مدينة مقدَّسة، تجد لها مكاناً في تراجيع صوت الخطيب وهو يوعد بالنذير. وكان توحيد الأمة وبعث مجدها الأثيل يتَّكئان بغبطة على وسائد البلاغة والإنشاء المنضبط الإيقاع، وكان التقدُّم الاجتماعي واقتراب مملكة الحرية يجدان كل ما يطلبان في لغة خطابية تختزل النظرية العلمية إلى لاهوت جديد. وبعد مرور عقود أربعة، تقريباً، على خروج الاستعمار أو دخوله من جديد، تصبح القدس، وكانت مدينة مقدسة، سلعة يبيعها الخونة ويشترون بثمنها مساعدات اقتصادية أمريكية أو مجموعة من خبراء الأمن والإعلام لقمع الشعب الذي لا يزال يدافع عن القدس. وبعد مرور عقود أربعة تقريباً، تظلُّ "إسرائيل" قائمة، وتصبح جزءاً أليفاً من حياتنا اليومية، وتنتزع شرعية تتزايد كلما نقصت كرامة المواطن وتضاءلت شرعية الحاكم وأخذت الأمور شكلاً مختلفاً، فكان الهدف القديم، الذي كان، لا يدور حول القدس وتحرير المجتمع والاستقلال الوطني وتحقيق الكرامة الوطنية، بل يدور حول قمع من يفكر في التحرير والاستقلال والكرامة، حتى أصبح الفكر الوطني والإنسان الوطني والتنظيم الوطني هو العدو الأول.

وفي هذا الفضاء الذي يغتال الكرامة الوطنية ويعرِّض وجود الأمة للخطر، تصبح القوى الوطنية الفلسطينية وجوداً زائداً، يتم قصفها ليلاً وخيانتها نهاراً. ويغدو الفلسطيني مباحاً، لمن يحسن إطلاق الرصاص، فإن عزَّت الرصاصة كانت السكين جاهزة، فإن غابت السكين فصفعة على الوجه تكفي. فإن كانت اليد مشلولة استلم الفلسطيني

إهانة لفظية، وهذا أضعف الإيمان. إن الدفاع عن فلسطين هو جزء من الدفاع عن الهوية الوطنية العربية، ففلسطين، كما نعلم، عربية، والقتال مع الفلسطينيين هو دفاع عن الحدود الوطنية والكرامة الوطنية واحترام التاريخ واللسان العربيين والأرض والسماء العربيتين. مع ذلك، فإن الأمور لا تأخذ في زمن الاستبداد العاجز أو العجز المستبد شكل الأحجية، فالفلسطيني الوطني لا يطارَد لأنه فلسطيني، فمن الفلسطينيين من يعيش مغتبطاً وقريباً من العجز والاستبداد، فالمطارد في الفلسطيني هو فعله الوطني، وبذلك يصبح كلُّ عربيٍّ وطنيٍّ فلسطينياً. إن الجغرافيا لا تفرِّق بين إنسان وإنسان فالفرق يأتي من الموقف السياسي، من وحش ظلامي فاشي وإرهابي وجشع اسمه البيت الأبيض الذي يضرب الأمة العربية بذراع اسمها "إسرائيل"، وبأصابع اسمها الرجعية العربية.

وفي هذا الفضاء الذي يتآمر على كل ما هو حي، يقف لبنان مهدَّداً في وجوده وعرضة لكل أشكال الأخطار، فكأن أنظمة الانحطاط العربية ترفض كل من لا يشاركها الانحطاط، فصدرت كل ما عندها من عجز وتآمر لتهزم هذا الجديد الذي قاتلت من أجله القوى الوطنية اللبنانية، والذي دفعت الجماهير اللبنانية من أجله دمها وراحتها اليومية. وفي هذا الفضاء وبابه الأكبر "كامب ديفيد" يستمر النهج الساداتي الذي استورد كل خبرات الظلام في العالم لينفتح على الخيانة والتواطؤ والاستسلام حتى استطاع أن يجعل من القوى الإظلامية، في أشكالها كلها، قوة تهدِّد كل ما هو ديمقراطي وعقلاني ووطني في مصر.

والسؤال الأخير: ماذا يفعل المثقف الوطني أمام هذا الدمار؟ لمن يكتب، ولماذا يكتب، وكيف يكتب؟ كيف يتمايز المثقف الوطني المسؤول عن المثقف التقني؟ كيف يستعيد المثقف الوطني لغة الوضوح، وكيف يكون جديراً باسمه؟ ليس في الإجابة لغز أو اختراع أو اكتشاف، فالكاتب الوطني العربي يكتب عن جملة الأخطار التي تجعل هويته وأرضه وتاريخه ولغته عرضة للانهيار. والأخطار داخلية وخارجية ووجوهها كثيرة: القمع والاستبداد، تحريم الحريات الديمقراطية، إلغاء الإنسان وعقله، انبعاث النزعات الإقليمية والطائفية والعشائرية والصعود المدوِّي للنزعات اللاعقلانية، في أشكالها كلها، والتآمر على فلسطين، ومطاردة الإنسان الوطني، وتبديد الثروة الوطنية، وتزايد التبعية، وتكريس الأرض والثروات العربية لصالح الإمبريالية الأمريكية، والاعتراف بـ"إسرائيل"، وتطبيع العلاقات، وتهديد الكيان الثقافي والسياسي والحدود الجغرافية للأمة العربية، والاستهانة بالإنسان العربي داخل الوطن وخارجه، وتفكك المجتمع، وانحدار الإنسان العربي إلى مستوى الحشرة أو الآفة في عواصم العالم...

إن الكتابة اليوم فعل سياسي، ولا موقف في الكتابة إن لم يكن موقفاً في السياسة. وإن الدفاع عن الهوية الوطنية هو الإبداع الكتابي الأول، وإن مفردات الكتابة لا تبدأ بالروح أو الأحلام أو الهواء الأسود أو تضامن العرب، إنها تبدأ بالسياسة، والسياسة هي الصراع بين الوطني والخائن، ولغة السياسة هي التي تبدأ بالدكتاتور والبيت الأبيض والكيان الصهيوني وتنتهي بالدعوة إلى الفعل الذي يستعيد كرامة الإنسان والمجتمع، الحاضر والماضي، العقل والتاريخ. والإنسان العربي لا يزال قادراً على الوقوف رغم هذا الركام. وانتشار الاستبداد برهان على أن العربي الوطني لا يزال عالي الصوت والقبضة ويرفض الهزيمة.

إن المثقف الوطني العربي ليس غائباً، فقد مارس دوره في الماضي، ولا يزال يمارس دوره رغم ظروف القهر والإحباط والعسر، ويتحمَّل من أجله كثيراً من العنت والعناء والحرمان. لكن ما لم يقم به المثقف العربي حتى الآن هو ممارسة سلطته أمام سلطة الحاكم، ودوره الفاعل في الحياة اليومية للناس، وتدخله ضدَّ القمع، وارتباطه بالفعل الثقافي من خلال الفعل اليومي المضادّ لما يجري في الحياة الاجتماعية والسياسية. إن ما يضعف هذا الدور تلك العلاقة الارتزاقية بين المثقف والحاكم، التي نظَّر لها واحد من المفكرين العرب البارزين تحت عنوان "تجسير الفجوة بين المثقف والأمير". وفي هذه الحقبة النفطية تصبح العلاقة مختلَّة أكثر فأكثر لصالح الحاكم ضدَّ المثقف. إن الوضع الراهن يطرح على المثقف العربي مسؤولية جديدة لن تتجلَّى في التنظير الثقافي، بل في وحدة النظرية والممارسة، فمن لا يكون وطنياً خارج الكتابة لا يمكنه أن يكون وطنياً في الكتابة

نداء إلى المثقفين العرب

المثقف العربي أمام المسؤولية الوطنية

كلما ازدادت اوضاع الوطن العربي تردياً انطلقت اصوات تحذر من الخطر الرابض عند حدود هذا الوطن والمتربص بكل واحد منا، خطر الاقتلاع ومحو الهوية، واخذ هذا التحذير اشكالا مختلفة، وانطلقت الصرخات لمرات متعددة من مختلف مناطق هذا الوطن، نذكر منها نداء مجلة الكرمل سنة 1981، ورسالة المثقفين العرب الى الحكام العرب في يوليوز 1982، وبياني اتحاد كتاب المغرب على اثر غزو بيروت ومجازر صبرا وشاتيلا وانتحار الشاعر خليل حاوي في يوليوز 1982، والاعمال البطولية لكل من سناء المحيدلي وسليمان خاطر...

واليوم، وبعد ان اصبح للعدوان ذراع طويلة امتدت لتضرب حيثما تشاء بمباركة الرجعية العربية... اليوم، وفي ظل التمزق العربي وكل مسلسلات التطبيع والاستسلام الزاحفة على الوطن العربي يأتي هذا النداء الذي نضعه بين ايديكم على امل ان يكون بداية حقيقية لنقاش جدي حول مسؤوليات المثقفين تجاه هذه الاوضاع :

لكان هذا الانحطاط العربي يأخذ شكل سلسلة هندسية، يطال الراس والاعضاء، الكل والاجزاء، والمركز والاطراف. انه كالسمكة التي فسد راسها حتى التلف، وبدا فسادها ينتشر شيئا فشيئا ليحتضن الجسم كله. واخذت بعض المفاهيم، ان لم يكن كلها، شكل الاحجية : الكرامة الوطنية، الاحتكام الى العقل، قيمة الانسان، وحدة المجتمع، وظيفة الدولة، دور الشعب، دلالة العدو، تاريخ الامة، القيم الوطنية، التضامن الاجتماعي، وحدة الارض واللغة... ان انتصار الامبريالية لم يكن في فرض الكيان الصهيوني بل في خلق صهيونية عربية انتقلت من السر الى العلن، ومن النظر الى الفعل المكشوف، صهيونية عربية بلا لعثمة تتوسل اسرائيل وتقمع الشعب العربي، ان لم تتوسل التحالف المضمر او المعلن مع اسرائيل لضرب كل ما هو حي في المجتمع العربي، حتى اصبح من الصعب الحديث عن الصهيونية بصيغة المفرد.

واذا كانت اسرائيل قوة فاعلة في الثورة المضادة على المستوى العالمي، فان الانظمة العربية وما يرتبط بها من مؤسسات وقوى اظلامية تلتقي مع اسرائيل في سياساتها التي تدعم الثورة المضادة وتنتجها باستمرار، وغاية هذه السياسات وهدفها الاخير هو اقرار واستقرار ممالك الظلام، واسرائيل كيان اظلامي بامتياز. ومن يبدا بالظلام ويكون له الرائد يبدا بتدمير الانسان كقوة مبدعة وتحطيم قوى الشعب الحية كلها، فيتساوى عدد المدارس والسجون، ان لم تصبح المدرسة سجنا، ويتزايد عدد المخبرين عن عدد الاطباء، وتتدهور المرافق العامة وتتطور وسائل القمع والاكراه، ويتقلص المجتمع وتنتفخ الدولة.. ان سمة الانظمة المستبدة تتكشف في زيادة تمركز السلطة وتزايد تهشيم وتهميش المجتمع المدني، فكان دور السلطة المستبدة هو تدمير كل ما يعوق حركه السلطة او لا يشكل امتدادا لها. بل يمكن القول ان دور الانظمه المستبدة، كما يجري في بلدان عربيه معينه، هو تدمير الدوله ومصادرتها لحساب سلطه هي اقرب ما تكون الى سلطه العصابات المسلحه.

واذا كان دور العقل هو تنظيم عمل العقل والمجتمع بشكل عقلاني، فان دور العقل في انظمه الثورة المضادة هو تحطيم العقل في مستوياته كلها : قمع العقل الحاضر، قمع العقل الموروث، استيراد النزعات اللاعقلانيه، تدمير العقلانية في الحياة اليوميه، استنهاض اللاعقلاني الموروث، انتاج اللاعقلانية في الحركه والماكل والمشرب واللباس والنظريه والممارسه. فكان وظيفة العقل هي تدمّير كل ما يعتبر العقل مرجعا، ان دور المعرفة، في زمن العقل، لا ينفصل عن الانتاج الاجتماعي الايجابي، اي انها اداة في خدمة الانسان اولا، تطرح الاسئلة وتحرض العقل الطليق على البحث عن الاجابة، فمسار المعرفة هو مسار بحث الانسان عن الحرية. اما دور المعرفة في انظمة الاستبداد فهو اكتشاف واختراع واستنباط كل الوسائل والمناهج والادوات التي تجعل من اللاعقلانية ظاهرة اجتماعية وفي هذا المشروع، الذي جعله النفط وازمة القوى الوطنية ممكنا، يتحالف الاكاديمي والجنرال، ويتكامل رجل البوليس والباحث التقني، ويتساند السلطوي المفلس مع المثقف الاداري او مثقف الاختصاص.

ويكون هدف المسدس والسوط والمجلات الاكاديمية والاوراق الملونة وخبير المعرفة هو تدمير ذلك المجهول - المعلوم : الانسان العادي، المواطن، الانسان العربي، الفكر النقدي. ولعل اكبر انجازات الثورة المضادة في هذا المجال هو نقل اللاعقلانية من اطار الكتب والافكار والنظريات والوعي الى فضاء الحياة الاجتماعية، حيث تعطي موت المجتمع في النزعات الاقليمية والطائفية البائسة والتعصب الاعمى. لم تكتف الثورة المضادة في نشر اللاعقلانية في مستوى البنى الفوقية، بل صدرت نفطها والذهب والخبراء الكبار الى كل مكان من اجل خلق قاعدة اجتماعية حقيقية لانتاج واعادة انتاج اللاعقلانية. وهذا ما جعل «الواعظ» رجلا في الاقتصاد، وبائع الافكار رجل اعمال، وحامل الشرح والتاويل والتبشير قوة اقتصادية.

واذا كان المثقف التقني، تاريخيا، ينتج معرفة تسمح للسلطة ان تعرف نقاط ضعفها وقوتها، ويكون سلطويا في الفعل والطموح، فان جديد زماننا العربي هو تحول المثقف السلطوي الى مثال ثقافي اجتماعي، حتى غدا المثقف، في شكله المسيطر، لا يرى ذاته خارج حدائق السلطة او مطابخها، فهو بائع الفكر التابع، وعطار المعرفة، الذي يصوغ معرفه تحتاجها السلطه، او الذي ينتج معرفة سلطوية الصياغه. وبذلك اصبحت هذه الانظمه، العاجزة حينا، والخائنة حينا آخر، هي مرجع المعرفة. وهي علم العلوم، ان النسق السلطوي الاستبدادي، هو مغلق، لا يسمح الا بنسق «معرفي» مغلق، اي ان الاستبداد يستعمل المعرفه من اجل هزيمه كل معرفه حقيقيه. فالانغلاق المطلق هو صفه اللاهوت الكامل.

واذا كانت السلطه المستبدة، كما المعرفه المستبدة، لا ترى العالم الا في مرجع وحيد اساسه السلطه، فان كل ما يخرج عنها له صفة النقيض الذي حسابه النفي والالغاء. وهذا ما يجعل الحوار والحريات وقبول راي الآخر مستحيلا. يوجد المختلف ويتم الاعتراف بالاختلاف حيث توجد الديمقراطيه، ويعتبر المختلف هو النقيض المطلوب دفنه واجتثاثه حيث يوجد الاستبداد، وبدون الاختلاف والصراع والحوار لا تتكون المعرفه ولا الانسان ولا المجتمع، فاحادية الراي والموقف والقرار تقضي الى سكون يبشر بالموت.

في هذا المسرح العربي الذي تتابع على خشبته ماساة طويلة ابطالها التجهيل والزجر والخنوع والبطر والبلاغة والسجون والخطيب الاعمى والاستهلاك الهجين، لا يبقى من الانسان الا وجوده الشكلي الباحث بذعر عن حل مشاكل النهار وانقاذ جلده. ويتراجع في هذا الوجود العنصر الذي يجعل المجتمع مجتمعا، اي يتراجع معنى المسؤولية، فردية كانت او جماعيه، فالفرد لا يستطيع ان يكون مسؤولا في مجتمع مسؤولية السلطه فيه هي تدمير الانسان اولا، ان انحلال معنى المسؤولية. في مستوياتها كلها، وهو المقدمة الاولى لانحلال المجتمع وتفسيخ ما كان موحدا، وتقطيع الشعب والامة الى اقاليم ومدن وقرى وشوارع وبيوت، حيث تتحلل الوحدة الاجتماعية، ويصبح الوطن مكانا جغرافيا قلق الحدود وغائم الدلالة تتراكم فيه مجموعة من الذرات الانسانية الباحثة عن خلاص فردي. فالتاريخ يعلمنا، ان كنا قادرين على التعلم، ان مجتمع القمع وانحلال المسؤوليه هو ذاك الذي يكون التفسخ افقه الوحيد. وهو المجتمع الذي يستبدل الذرة التائهة بالفردية الواعية والفعل الخلاق بالفرار واللواذ والانسحاب.

لقد عاش الخطاب العربي، في الوانه كلها، وهو يبشر بجمال الزمن الآتي، بقرب انبعاث القوة الهاجعة في طي الزمان، وبالتحقيق المبدع للجوهر العربي المستمر. وفي هذا الخطاب كانت القدس، مدينة مقدسة، تجد لها مكانا في تراجيع صوت الخطيب وهو يوعد بالنذير، وكان توحيد الامة وبعث مجدها الاثيل يتكئان بغبطة على وسائد البلاغة والانشاء المنضبط الايقاع، وكان التقدم الاجتماعي واقتراب مملكة الحرية يجدان كل ما يطلبان في لغة خطابية تختزل النظرية العلمية الى لاهوت جديد. وبعد مرور عقود اربعة، تقريبا، على خروج الاستعمار، او دخوله من جديد، تصبح القدس، وكانت مدينة مقدسة، سلعة يبيعها الخونة ويشترون بثمنها مساعدات اقتصادية امريكية او مجموعة من خبراء الامن والاعلام لقمع الشعب الذي لا يزال يدافع عن القدس. وبعد مرور عقود اربعة تقريبا، تظل اسرائيل قائمه، وتصبح جزءا اليفا من حياتنا اليومية، وتنتزع شرعية تتزايد كلما نقصت كرامة المواطن وتضاءلت شرعية الحاكم واخذت الامور شكلا مختلفا، فكان الهدف القديم، الذي كان، لا يدور حول القدس وتحرير المجتمع والاستقلال الوطني وتحقيق الكرامة الوطنية، بل يدور حول قمع من يفكر في التحرير والاستقلال والكرامه، حتى اصبح الفكر الوطني والانسان الوطني والتنظيم الوطني هو العدو الاول.

وفي هذا الفضاء الذي يغتال الكرامه الوطنيه ويعرض وجود الامه للخطر، تصبح القوى الوطنيه الفلسطينيه وجودا زائدا، يتم قصفها ليلا وخيانتها نهارا. ويغدو الفلسطيني مباحا، لمن يحسن اطلاق الرصاص، فان عزت الرصاصه كانت السكين جاهزة، فان غابت السكين فصفعه على الوجه تكفي. فان كانت اليد مشلوله استلم الفلسطيني اهانه لفظيه، وهذا اضعف

الايمان. ان الدفاع عن فلسطين هو جزء من الدفاع عن الهوية الوطنية العربية، ففلسطين، كما نعلم، عربية، والقتال مع الفلسطينيين هو دفاع عن الحدود الوطنية والكرامة الوطنية واحترام التاريخ واللسان العربيين والارض والسماء العربيتين. مع ذلك، فان الامور لا تاخذ في زمن الاستبداد العاجز او العجز المستبد شكل الاحجية، فالفلسطيني الوطني لا يطارد لانه فلسطيني، فمن الفلسطينيين من يعيش مغتبطا وقريبا من العجز والاستبداد، فالمطارد في الفلسطيني هو فعله الوطني، وبذلك يصبح كل عربي وطني فلسطينيا. ان الجغرافيا لا تفرق بين انسان وانسان، فالفرق ياتي من الموقف السياسي من وحش اظلامي فاشي وارهابي وجشع اسمه البيت الابيض الذي يضرب الامة العربية بذراع اسمها اسرائيل، وباصابع اسمها الرجعية العربية.

وفي هذا الفضاء الذي يتآمر على كل ما هو حي يقف لبنان مهددا في وجوده وعرضة لكل اشكال الاخطار، فكان انظمة الانحطاط العربية ترفض كل من لا يشاركها الانحطاط، فصدرت كل ما عندها من عجز وتآمر لتهزم هذا الجديد الذي قاتلت من اجله القوى الوطنية اللبنانية، والذي دفعت الجماهير اللبنانية من اجله دمها وراحتها اليومية. وفي هذا الفضاء وبابه الاكبر «كامب ديفيد» يستمر النهج الساداتي الذي استورد كل خبرات الظلام في العالم لينفتح على الخيانة والتواطؤ والاستسلام حتى استطاع ان يجعل من القوى الاظلامية، في اشكالها كلها، قوة تهدد كل ما هو ديمقراطي وعقلاني ووطني في مصر.

والسؤال الاخير : ماذا يفعل المثقف الوطني امام هذا الدمار؟ لمن يكتب، ولماذا يكتب، وكيف يكتب؟ كيف يتمايز المثقف الوطني المسؤول عن المثقف التقني؟ كيف يستعيد المثقف الوطني لغة الوضوح، وكيف يكون جذيرا باسمه؟ ليس في الاجابة لغز او اختراع او اكتشاف، فالكاتب الوطني العربي يكتب عن جملة الاخطار التي تجعل هويته وارضه وتاريخه ولغته عرضة للانهيار. والاخطار داخلية وخارجية ووجوهها كثيرة : القمع والاستبداد، تحريم الحريات الديمقراطية، الغاء الانسان وعقله، انبعاث النزعات الاقليمية والطائفية والعشائرية، الصعود المدوي للنزعات اللاعقلانيه، في اشكالها كلها، التآمر على فلسطين، مطاردة الانسان الوطني، تبديد الثروة الوطنية، تزايد التبعيه، تكريس الارض والثروات العربية لصالح الامبريالية الامريكية، الاعتراف باسرائيل وتطبيع العلاقات، تهديد الكيان الثقافي والسياسي والحدود الجغرافيه للامة العربية، الاستهانه بالانسان العربي داخل الوطن وخارجه، تفكك المجتمع انحدار الانسان العربي الى مستوى الحشرة او الافة في عواصم العالم...

ان الكتابة اليوم فعل سياسي، ولا موقف في الكتابة ان لم يكن موقفا في السياسة. وان الدفاع عن الهوية الوطنية هو الابداع الكتابي الاول، وان مفردات الكتابة لا تبدا بالروح او الاحلام او الهواء الاسود او تضامن العرب، انها تبدا بالسياسة، والسياسة هي الصراع بين الوطني والخائن، ولغة السياسة هي التي تبدا بالدكتاتور والبيت الابيض والكيان الصهيوني وتنتهي بالدعوة الى الفعل الذي يستعيد كرامة الانسان والمجتمع، الحاضر والماضي، العقل والتاريخ. والانسان العربي لا يزال قادرا على الوقوف رغم هذا الركام. وانتشار الاستبداد برهان على ان العربي الوطني لا يزال عالي الصوت والقبضة ويرفض الهزيمة.

ان المثقف الوطني العربي ليس غائبا، فقد مارس دوره في الماضي، ولا يزال يمارس دوره رغم ظروف القهر والاحباط والعسر، ويتحمل من اجله كثيرا من العنت والعناء والحرمان. لكن ما لم يقم به المثقف العربي حتى الان هو ممارسة سلطته امام سلطة الحاكم، دوره الفاعل في الحياة اليومية للناس، تدخله ضد القمع، ارتباطه بالفعل الثقافي من خلال الفعل اليومي المضاد لما يجري في الحياة الاجتماعية والسياسية. ان ما يضعف هذا الدور تلك العلاقة الارتزاقية بين المثقف والحاكم، التي نظر لها واحد من المفكرين العرب البارزين تحت عنوان «تجسير الفجوة بين المثقف والامير». وفي هذه الحقبة النفطية تصبح العلاقة مختلة اكثر فاكثر لصالح الحاكم ضد المثقف ان الوضع الراهن يطرح على المثقف العربي مسؤولية جديدة لن تتجلى في التنظير الثقافي، بل في وحدة النظرية والممارسة، فمن لا يكون وطنيا خارج الكتابة لا يمكنه ان يكون وطنيا في الكتابة.

صادق العظم
هادي العلوي
فيصل دراج
سعد الله ونوس
إلياس خوري